في الأسباب والآثار لاغتراب العلاقة بين المجتمع ولغته

محمود الذوادي*

ملخص: ندرس في هذا البحث ما نعده حالة اغتراب بين المتعلمين التونسيين واللغة العربية: لغتهم الوطنية، وذلك بعد ما يقرب من نصف قرن من استقلال تونس عن فرنسا. فهؤلاء التونسيون بعيدون كثيراً عن استعمالها، بالكامل، في الحديث والكتابة في شؤون حياتهم الصغيرة والكبيرة. يغلب على اتجاه معظمهم من اللغة العربية فقدان الاعتزاز بها والدفاع عنها والغيرة عليها. يبرز منظور علم النفس الاجتماعي لتحليلنا أن ذلك راجع، في المقام الأول، إلى إيديولوجيا القيادة السياسية، وإلى المتعلمين التونسيين أصحاب التكوين اللغوي الثقافي المزدوج (عربي – فرنسي) أو الأكثر فرنسة؛ إذ هم الذين أمسكوا بالمراكز الحساسة على كل المستويات في إدارة البلاد منذ نهاية الاستعمار الفرنسي في 1956، فكانوا متعاطفين، إلى حد كبير، مع استمرار لغة فرنسا وثقافتها. ومن ثم، غاب، بالكامل، مصطلح الاستقلال/ الجلاء اللغوي الثقافي الفرنسي من قاموس النخب السياسية والفكرية والعلمية وأغلبية الفئات والطبقات الاجتماعية التونسية المزدوجة اللغة والثقافة، بعد الاستقلال.

المصطلحات الأساسية: احتقار اللغة العربية، اغتراب النخب والمجتمع، التخلف الآخر.

أولاً – البحث ومنهجيته وإطاره الفكري:

يهدف هذا البحث إلى معرفة ظاهرة **اغتراب العلاقة السائدة بين اللغة العربية وأغلبية المتعلمين التونسيين** في عهدي: الاستعمار الفرنسي (1881–1956)، ثم

* عالم الاجتماع – جامعة تونس.

الاستقلال منذ 1956. ونعني بهؤلاء المتعلمين، في صفحات هذا البحث، أولئك المتعلمين الذين أتموا، على الأقل، دراستهم الإعدادية/ الأساسية.

نتبنى هنا **المنهج** الوصفي والتشخيصي والتاريخي والتحليلي للظاهرة برؤية العلوم الاجتماعية، بخاصة علم النفس الاجتماعي الذي يساعد، بالتأكيد، على تعرف كثير من الأسباب التي تقف وراء الاتجاه attitude الجماعي السلبي العام لدى هؤلاء المتعلمين إزاء لغتهم الوطنية.

أما **خطة البحث**، التي نسعى من خلالها إلى الفهم والتفسير لظاهرة اغتراب العلاقة بين المتعلمين التونسيين ولغتهم العربية، فهي تتكون من العناصر التالية: وصف الظاهرة بمؤشرات ستة، طرح فروض حول أسباب بروز الظاهرة وفحص دور النظام التربوي والقيادات السياسية والمجتمعية بصفة عامة، لفترة ما بعد الاستقلال، في تجلي معالم ظاهرة البحث واستمرارها حتى بعد مرور ما يقرب من نصف قرن من استقلال المجتمع التونسي من الاستعمار الفرنسي في عام 1956.

ونطمح في نهاية المطاف إلى قراءة بعض الانعكاسات لعلاقة المتعلمين التونسيين باللغة العربية على هوية المجتمع التونسي ومواطنيه، وذلك بالاستعانة، على الخصوص، بمنظور علم النفس الاجتماعي، من جهة، ومفهوم الرموز الثقافية عندنا، من جهة ثانية. كما نستشرف آفاق مستقبل اللغة العربية في المجتمع التونسي الحديث.

إن مفهومنا للرموز الثقافية هو منظومة ثقافية تتكون من **اللغة والدين والفكر والمعرفة: العلم والقوانين والقيم والأعراف الثقافية والأساطير...** التي يتميز بها الجنس البشري بطريقة قاطعة عن بقية الأجناس الأخرى، الأمر الذي أهَّل بني آدم وحدهم ليكونوا سادة في الأرض/ الكون.

فالرموز الثقافية هي، إذن، **بيت القصيد** في صلب هوية الإنسان بوصفه كائناً فريداً وتمثل اللغة أم جميع العناصر المكونة لمنظومة الرموز الثقافية؛ إذ بغيابها يختفي ميلاد الرموز الثقافية الإنسانية وتجليها كما عرفتها وتعرفها البشرية عبر تاريخها الطويل. ومن ثم يمكن القول بحق: إن **اللغة هي أم الرموز الثقافية جميعاً.** ومن ثم يفترض أن ما يصيبها من انتكاسات وأخطار في حياة المجتمعات يندر ويصعب أن يكون مصاباً هيّناً على الأفراد والمجتمعات؛ إذ إن الأمر يمس هنا جوهر الإنسان ومجتمعه، ألا وهو اللغة وما يتفرع عنها من بقية الرموز الثقافية.

وبعبارة أخرى، فمصاب الأفراد والمجتمعات في لغتهم هو فعلاً مصاب جلل وفقاً لرؤية/إيبستيمولوجيا إطارنا الفكري لمفهوم الرموز الثقافية المشار إليه؛ لأنه مصاب يمس ويهاجم ما بدونه يفقد الإنسان إنسانيته نفسها، وما بدونه يخسر الجنس البشري تميزه عن بقية الكائنات، ويخسر أيضاً قدرته على السيادة عليها.

ثانياً – اتجاه المجتمعات نحو لغاتها الوطنية:

يعلن دستور الجمهورية التونسية في أول فصوله أن «تونس دولة حرة مستقلة ذات سيادة، الإسلام دينها **والعربية لغتها** والجمهورية نظامها» (دستور الجمهورية التونسية، 1998: 7). فواضح مما ورد في هذا البند من الدستور التونسي أن القيادة السياسية التونسية الجديدة بعد الاستقلال تقر أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية أو الوطنية للمجتمع التونسي المستقل. فماذا يعني ذلك بالنسبة للمجتمع التونسي؟ أي هل لهذا المجتمع من التزامات معينة إزاء اللغة العربية حتى تكون **فعلاً لغته الوطنية/ الرسمية، بحيث تصبح العلاقة بينهما علاقة عضوية حميمية؟**

تفيد الملاحظات الميدانية اليوم في المجتمعات المتقدمة بالتحديد بأن لغاتها الرسمية/الوطنية تتمتع فيها عموماً بالمواصفات الرئيسة التالية:

1 – الاستعمال الكامل لها على المستويين الشفوي والكتابي.

2 – الاحترام لها والاعتزاز بها والغيرة عليها والتحمس للدفاع عنها.

3 – معارضة استعمال لغة أجنبية بين مواطني تلك المجتمعات.

4 – شعور عفوي قوي لدى المواطنين بالأولوية الكبرى التي يجب أن تنفرد بها اللغة الوطنية في الاستعمال في مجتمعاتهم.

5 – إحساس قوي ومراقبة واسعة لدى المواطنين لتجنب استعمال الكلمات الأجنبية، من ناحية، وسياسات وطنية متواصلة من طرف أصحاب السلطة لترجمة المصطلحات والكلمات الأجنبية الجديدة إلى اللغة الوطنية، من ناحية ثانية.

6 – تمثل اللغة الوطنية العنصر الأبرز لتحديد هويات الأفراد والجماعات في المجتمعات المختلفة، ويتجلى ذلك أكثر في عصرنا الحديث في المجتمعات المتقدمة أو تلك التي لم تتعرض للهيمنة الاستعمارية بوجهيها التقليدي المباشر أو الجديد غير المباشر.

ثالثاً – تشخيص علاقة التونسي باللغة العربية:

إذا تبنينا تلك المؤشرات الستة لقياس اتجاه التونسيين اليوم إزاء اللغة العربية (لغتهم الوطنية) وجدنا أن **اتجاههم ضعيف** على كل واحد من هذه المؤشرات:

1 – فعلى المستوى الشفوي، يمزج التونسيون كثيراً حديثهم بكلمات وجمل وعبارات فرنسية، حتى إنه يصح وصف اللهجة التونسية بأنها لا تكاد تكون سوى مزج للعربية بالفرنسية أي الفرونكوأراب le franco-arabe في أغلب الأحيان.

وربما يجوز القول: إن أغلبية التونسيين اليوم يستعملون كلمة فرنسية على الأقل في كل عشرين كلمة (1/20) من حديثهم بالعامية التونسية مع المواطنين التونسيين. فالاستعمال المكثف للفرنسية في اللهجة التونسية (الفرونكوأراب) هو سيد الموقف في حديث الأكثرية الساحقة للتونسيين في مطلع القرن الحادي والعشرين. وبتعبير العلوم الاجتماعية، فالفرونكوأراب، بوصفها سلوكاً لغوياً شائعاً في المجتمع التونسي الحديث، تمثل المعيار اللغوي الاجتماعي socio-linguistic norm. أي أن حديث التونسي مع التونسيين بلهجة تونسية عربية خالية تماماً من أي كلمة فرنسية ينظر إليه اللاشعوريا من طرفهم على أنه ضرب من السلوك اللغوي المنحرف (Schur, 1980) الذي طالما يقابل بالتعجب والحيرة بل التهكم والسخرية أيضاً.

أما استعمال اللغة العربية على مستوى الكتابة في المجتمع التونسي فهو لا يزال محدوداً في الأمور الكبيرة والصغيرة على حد سواء. فمعظم التونسيين يكتبون، مثلاً، صكوكهم المصرفية باللغة الفرنسية ويقومون أيضاً بكتابة إمضاءاتهم بلغة موليار. واللغة العربية غائبة عموماً في العديد من المؤسسات التونسية الحديثة. فاللغة الفرنسية هي لغة العلوم في المؤسسات التعليمية التونسية ابتداء من مرحلة التعليم الثانوي وانتهاء بمرحلة الدراسات الجامعية العليا. كما أن اللغة الفرنسية تبقى لغة الكتابة لأنشطة جل البنوك التونسية ولغة المراسلات الدورية مع حرفائها.

أما تعريب الإدارات الحكومية التونسية بالكامل فلم يصدر فيه أمر إلا بعد أكثر من أربعين سنة من الاستقلال؛ فقد صدر في عام 1999 أمر رئاسي يطالب كل المؤسسات الحكومية أن تكمل تعريب مراسلاتها إلى المواطنين التونسيين مع نهاية سنة 2000. ومما لا شك فيه أن لمثل هذا القانون إسهاماً معتبراً في الدفع إلى الأمام بحركة تمكين اللغة العربية بأن تصبح، أكثر فأكثر، هي اللغة المستعملة في الكتابة بالمؤسسات الحكومية وغير الحكومية، التونسية. ينتظر أن يكون لهذا المرسوم الأثر

الكبير في الواقع اللغوي الجديد مما يترك آثاراً إيجابية في تزايد استعمال اللغة العربية وانتشارها في الكتابة لدى التونسيين. وبالنجاح في مثل هذا المسار ومواصلة تعزيزه في العقدين القادمين تكون اللغة العربية، ربما، مؤهلة مع الربع الأول من هذا القرن 2025 لكي تسترجع مكانتها بوصفها لغة وطنية يدير بها التونسيون معظم أو ربما كل شؤونهم الشخصية والاجتماعية على كثرة تنوعها وتعقيداتها في مجتمعهم الساعي إلى اللحاق بالمجتمعات المتقدمة. وسوف نناقش لاحقاً في هذا البحث بعض الأسباب التي ساعدت كلها أو بعض منها على اتخاذ قرار التعريب الشامل والكامل للإدارات الحكومية التونسية.

أما حال استعمال اللغة العربية في الأمور الكتابية في المجتمع التونسي اليوم خارج الإدارات الحكومية، فيجوز أيضاً تسميته بسهولة بأنه فرونكوأراب كتابية يوازي الفرونكوأراب الشفاهية المشار إليها سابقاً. وبعبارة أخرى، فالمجتمع التونسي اليوم مزدوج اللغة بالكامل على المستويين الشفاهي والكتابي.

2 – تشير اليوم الاستبانات questionnaires والملاحظات الميدانية المتكررة لسلوكات المتعلمين التونسيين اللغوية إلى أن أغلبيتهم الساحقة لا تكاد تبدي بعفوية وارتياح حماساً واعتزازاً باللغة العربية باعتبارها لغتهم الوطنية. ويقترن فقدان الحماس والاعتزاز باللغة العربية عندهم بغياب الاتجاه القوي المدافع بعفوية والغيور في السر والعلانية على اللغة العربية في المجتمع التونسي الحديث (Johada & Warren, 1966). وبعبارة أخرى، فلا يكاد يوجد عندهم، في أحسن الأحوال، أكثر من شعور فاتر إزاء اللغة العربية التي تعد رسمياً لغتهم الوطنية وما يتبع ذلك من أولوية الاحترام والولاء لها قبل أية لغة أخرى. إن اللافت للنظر بهذا الصدد أن القيادات السياسية التونسية في العهد البورقيبي، على الخصوص، اختارت – عكس ما نجده عند نظيرتها الجزائرية – ألا تطلق كلمة «الوطنية» نعتاً للغة العربية كما تفعل ذلك بالنسبة للعديد من المؤسسات والشركات والبنوك الحكومية التونسية مثل الإذاعة الوطنية والشركة الوطنية التونسية للسكك الحديدية والبنك القومي الفلاحي[1].

(1) اندفعت السلط التونسية في العقود الثلاثة الأولى للاستقلال في ظل حكم الرئيس الحبيب بورقيبة إلى استعمال كلمة «**قومي**» بدلاً من «وطني». وفي ذلك إشارة من القيادة السياسية إلى معارضتها لفكر القومية العربية الساخن يومئذ في المشرق العربي بقيادة جمال عبدالناصر. «فالقومي» أصبح يعني عند التونسيين الوطني/التونسي/ القطري. يلاحظ منذ سنوات في المجتمع التونسي أن كلمة «قومي» أخذ يستبدل بها أكثر فأكثر كلمة «وطني».

فإذا كانت إيديولوجيا السلط المسؤولة والنخب المتعلمة والمثقفة في المجتمع التونسي المستقل تركز على أهمية كل ما هو وطني: أي ما هو تونسي، فإن حرمان اللغة العربية من نعت «وطنية» يفقدها الكثير من مكانتها ومشروعيتها في عمق بؤرة وعي التونسيين وممارستهم؛ إذ تكون بذلك اللغة العربية في تصورهم ووعيهم الشعور واللاشعور وكأنها ليست جزءاً صميماً من الوطنية التونسية.

ولعل مما يقوي مصداقية هذا الوصف لاتجاه المتعلمين التونسيين من اللغة العربية، لغتهم الوطنية، أننا طالما طرحنا هذا التشخيص لهذا الاتجاه من اللغة العربية على الطلبة التونسيين في قاعات التدريس الجامعية أو على الحاضرين المتعلمين والمسؤولين التونسيين في مناسبات أخرى دعينا فيها للحديث لهم، ولا نتذكر أبداً أن أنكر أحد أو احتج بقوة على وجود هذه العلاقة الفاترة بين المتعلمين التونسيين ولغتهم العربية. أي أن الملاحظات الميدانية تفيد أن أجيال المتعلمين التونسيين المزدوجي اللغة والثقافة أو الأكثر تفرنساً[2] لفترتي الاستعمار والاستقلال هي عموماً أجيال فاقدة لاتجاه الاعتزاز والحماس العميقين والشعور بالغيرة للدفاع بعفوية وقوة عن اللغة العربية. وفي المقابل تغلب على اتجاههم العام من لغتهم الوطنية حالة من اللامبالاة أو حتى العداوة السافرة عند البعض من ذوي التكوين التعليمي الأكثر تفرنساً على الخصوص.

3 – لايعارض، ومن ثم لا يحظر، المتعلمون التونسيون اليوم على أنفسهم استعمال اللغة الفرنسية بينهم في الشؤون الصغيرة والكبيرة التي يقومون بها في مجتمعهم، بل نجد الكثير منهم يرغبون ويفتخرون بذلك.

4 – لا يلاحظ الباحث الاجتماعي اليوم لدى أغلبية المتعلمين التونسيين اتجاهاً قوياً ومتحمساً ينادي ويعمل فعلاً على إعطاء اللغة العربية الأولوية الكبرى في الاستعمال في كل قطاعات المجتمع التونسي بما فيها القطاعات العصرية.

5 – أما هاجس مراقبة النفس لتجنب استعمال الكلمات الأجنبية فهو أمر مفقود عموماً عند المتعلمين التونسيين. ولعل ازدياد انتشار ظاهرة الفرونكوأراب بينهم اليوم هو دليل على ضعف وعيهم بأهمية اللغة العربية بوصفها لغة وطنية لمجتمعهم. ومن ثم، جاء فقدان أو ضعف الالتزام لديهم بتضييق الخناق على اللجوء

(2) سوف نتحدث لاحقاً بشيء من التفصيل حول هذين الصنفين من المتعلمين التونسيين.

إلى استعمال كلمات وعبارات فرنسية كثيرة في العامية التونسية واللغة العربية الفصحى على حد سواء، كما رأينا سابقاً.

6 – إذا كان الألمان والإيطاليون والفرنسيون والأسبان، مثلاً، يعرّفون بتلقائية هويتهم في المقام الأول بلغاتهم الوطنية، فإن الازدواجية اللغوية والثقافية للتونسيين المتعلمين لا تكاد تسمح لهم بربط هويتهم، بوضوح وبسهولة، باللغة العربية: أي الانتماء الواضح والقوي إلى الهوية العربية[3].

رابعاً – دور النظام التربوي التونسي في حال اللغة العربية:

لا بد للباحث الاجتماعي اللغوي the sociolinguist أن يطرح عدة فروض لفهم وتفسير هذا الاتجاه الفاتر الذي يتصف به التونسي المتعلم إزاء اللغة العربية: لغته الوطنية.

إن **الفرض الأول** الذي يرشح نفسه بقوة هنا هو: ما دور المدارس والمعاهد والجامعات التونسية في غرس حب اللغة العربية والاعتزاز بها أو فقدانهما؟ إذ التونسي يتعلم اللغة العربية الفصحى في هذه الفضاءات التربوية مثلما يتعلم اللغات الأجنبية مثل الفرنسية والإنجليزية. فالملاحظات الميدانية المتكررة تشير إلى أن التونسي المتعلم يولي، بطريقة شبه اللاشعورية، مكانة أعلى لهاتين اللغتين على حساب لغته العربية الفصحى[4]. فهل يسهم فعلاً النظام التربوي التونسي في بث هذا الموقف المتقاعس الشائع إزاء اللغة العربية لدى التونسيين المتعلمين؟

الفرض الثاني، تشير الملاحظات إلى أن إطار التعليم التونسي (المعلمين وأساتذة التعليم الأساسي والثانوي والجامعي) المزدوج اللغة والثقافة[5] في كل

(3) تفيد الملاحظات الميدانية للمتعلمين التونسيين اليوم أن انتسابهم **الهوياتي** identity يغلب عليه **الارتباك والتذبذب**. ولا بد أن يكون للازدواجية اللغوية والثقافية دور حاسم في ذلك، كما يشير إلى ذلك العديد من بحوث العلوم الاجتماعية الحديثة.

(4) نعني بعبارة «التونسي المتعلم» المواطن التونسي الذي تلقى في عهد الاستعمار أو منذ الاستقلال تعليماً إعدادياً على الأقل مزدوج اللغة والثقافة (عربية وفرنسية) أو تعليماً تهيمن عليه اللغة الفرنسية وثقافتها.

(5) يعرف النظام التربوي التونسي المعاصر **ثلاثة أصناف**: أ– تعليم تهيمن فيه اللغة العربية وثقافتها العربية الإسلامية على تكوين المتعلمين، وهم الزيتونيون لفترة ما قبل الاستقلال على الخصوص. ب – تعليم يتصف بازدواجية اللغة والثقافة (عربية وفرنسية) شبه المتزنة (القوية). يمثل الصادقيون هذا الصنف قبل الاستقلال. علماً أن تمكن هؤلاء في اللغة الفرنسية وثقافتها **أقوى** من نظيره في اللغة العربية وثقافتها. كما تنتسب أجيال المتعلمين التونسيين لفترة الاستقلال إلى صنف الازدواجية =

مراحل التعليم غير قادر في أغلبيته الساحقة على التحمس بعفوية واستمرار للغة الوطنية: اللغة العربية. وينتشر هذا الاتجاه حتى لدى أطر التعليم التونسية ذوي الازدواجية القوية مثل خريجي المدرسة الثانوية الصادقية (الصادقيين) لفترة ما قبل الاستقلال وأغلبية خريجي التعليم التونسي لما بعد الاستقلال؛ إذ يغلب على معظم هؤلاء تحيز لصالح اللغة الفرنسية وثقافتها على حساب اللغة العربية وثقافتها. هل يعود ذلك الاتجاه بين المتعلمين التونسيين إزاء اللغة العربية إلى الازدواجية اللغوية الثقافية المتأثرة بالعامل الاستعماري، أو بإيديولوجيا القيادات السياسية والمتعلمين التونسيين لما بعد الاستقلال؟ أم لهما معاً؟

الفرض الثالث، هل مجرد الازدواجية اللغوية الثقافية تؤدي في حد ذاتها إلى تحقير اللغة الوطنية وتهميشها في كل المجتمعات البشرية؟ والإجابة القاطعة هي **لا.** تؤكد صحة هذا الأمثلة المتعددة من المتعلمين المزدوجي اللغة والثقافة في كل من ألمانيا والسويد وأسبانيا وماليزيا وحتى كيباك. أي أن المتعلمين المزدوجي اللغة والثقافة في هذه المجتمعات يعتزون بطريقة تلقائية بلغتهم الوطنية ويدافعون عنها

= اللغوية الثقافية القوية التي يكون فيها مستوى اللغة العربية وثقافتها أحسن من نظيره في اللغة الفرنسية وثقافتها عند التلميذ التونسي حتى نهاية مرحلة التعليم الثانوي على الأقل. يندر بعد ذلك استعمال اللغة العربية وثقافتها عند الطالب التونسي الجامعي الذي يدرس فروع العلوم الصحيحة المتنوعة. ومع ذلك، فننظر في هذا البحث إلى خريجي التعليم التونسي لما بعد الاستقلال وإلى الصادقيين على أنهم ينتمون إلى ما نريد تسميته بـ «**الازدواجية القوية**». ج – تعليم تهيمن فيه بالكامل اللغة الفرنسية وثقافتها، من جهة، وتهمش فيه اللغة العربية وثقافتها، من جهة ثانية. كان هذا النوع من التعليم منتشراً في عهد الاستعمار الفرنسي بإشراف البعثات الفرنسية Missions. تراجع هذا الصنف من التعليم منذ الاستقلال، لكنه لم يندثر. ونود أن نطلق على الازدواجية اللغوية الثقافية لهذا الصنف من التعليم ونظيره الزيتوني مصطلح **الازدواجية الضعيفة** نظراً لضعف أحد طرفي الازدواجية. وبناء على ما سبق، فإن الازدواجية اللغوية الثقافية للمتعلمين التونسيين اليوم تتكون من **أربعة أنواع:** 1– ازدواجية تتفوق فيها اللغة الفرنسية وثقافتها كما كان الأمر عند خريجي المدرسة الصادقية قبل الاستقلال. 2 – ازدواجية تتفوق عموماً فيها اللغة العربية وثقافتها عند التلميذ التونسي حتى نهاية المرحلة الثانوية على نظيرتيهما الفرنسيتين. يمثل هذا الصنف من الازدواجية خريجو المرحلة الثانوية وما قبلها من التعليم التونسي العام منذ الاستقلال. ينتمي هذان النوعان من الازدواجية إلى الازدواجية القوية. 3 – ازدواجية تهيمن فيها اللغة الفرنسية وثقافتها على اللغة العربية وثقافتها عند المتعلم التونسي. وهذا ما نجده عند خريجي مدارس البعثات الفرنسية وما شابهها قبل الاستقلال وبعده. 4 – ازدواجية تهيمن فيها اللغة العربية وثقافتها على اللغة الفرنسية وثقافتها. إن خريجي جامع الزيتونة لفترة ما قبل الاستقلال هم على الخصوص خير مثال على ذلك. وينتمي هذان النوعان إلى ما سميناه بالازدواجية الضعيفة.

ويستعملونها في المقام الأول في مجتمعاتهم ويعرفون هويتهم عبر لغتهم الوطنية. وبعبارة أخرى، فعلاقة هذه المجتمعات ومتعلميها بلغاتهم الوطنية هي علاقة عضوية وطبيعية وسليمة.

خامساً – علاقة التونسيين بلغتهم الوطنية:

مما سبق يمكن القول اليوم: إن علاقة التونسي المتعلم – صاحب الازدواجية اللغوية الثقافية القوية أو الضعيفة – بلغته الوطنية ليست بالعلاقة العضوية الطبيعية السليمة، باستثناء التونسي خريج التعليم الزيتوني. فذلك التونسي فاقد لوازع الاعتزاز بها، وهو لا يزال يهمش استعمالها في شؤون حياته حتى في البسيط منها[6]، وهو نادر أن يعرف بها هويته. وهذا عامل قوي وحاسم في إرباك هوية الأفراد والمجتمعات، كما تشهد بذلك بحوث العلوم الاجتماعية الحديثة (Ruano-Boballan, 1998: 270-282).

لا يسع الباحث الاجتماعي الدارس لمكانة اللغة العربية اليوم لدى المجتمع التونسي إلا أن يتعرف عن قرب دور النظام التربوي لفترتي ما قبل الاستقلال وما بعده، في فهم وتفسير المكانة المهمشة المتدنية للغة العربية عند المتعلمين التونسيين المزدوجي اللغة والثقافة المنتمين إلى أصناف الازدواجية: 1، 2، 3 المشار إليها في الهامش الخامس سابقاً. ففي عهد الاستعمار الفرنسي كان النظام التربوي ينقسم إلى ثلاثة أنواع:

1 – التعليم الزيتوني المعرب لغة والإسلامي ثقافة[7].

2 – التعليم الصادقي ذي الازدواجية القوية لصالح اللغة والثقافة الفرنسيتين.

3 – التعليم الذي يهيمن عليه التكوين الفرنسي لغة وثقافة (Mission)، والذي

(6) فالفرنسية اليوم هي، مثلاً، اللغة المفضلة عند الأغلبية الساحقة من التونسيين المتعلمين في نطق الأرقام، صغيرها وكبيرها على حد سواء.

(7) تشير الملاحظات الميدانية والدراسات إلى أن خريجي التعليم الزيتوني ذوي الازدواجية اللغوية الثقافية الضعيفة هم شديدو الاعتزاز، باللغة العربية وقويو الدفاع عنها وكثيرو التحمس للانتماء إلى الهوية العربية الإسلامية. راجع دراسة محمود الذوادي «في مخاطر الازدواجيات اللغوية والثقافية على اللغة الوطنية والهوية الجماعية»، **الفكر العربي**، السنة السادسة عشرة، العدد 80، ربيع 1995، ص25–38، ثم انظر للمؤلف نفسه، وبخاصة الباب الرابع من كتابه: **التخلف الآخر: عولمة أزمة الهويات الثقافية في الوطن العربي والعالم الثالث**، تونس، الأطلسية للنشر، 2002، ص199–208.

تشرف عليه البعثات الفرنسية ذات التوجهات التبشيرية الساعية لنشر الدين المسيحي بين التونسيين[8].

ومن وجهة نظر تحليلية سوسيولوجية، لا ينتظر من المتعلمين التونسيين بهذا الصنف الأخير من التعليم أن يكون لهم شعور قوي بالاعتزاز باللغة العربية وثقافتها أو تحمس وغيرة للدفاع عنهما. بل تفيد الملاحظات الميدانية المتكررة وجود عكس ذلك بينهم والمتمثل في موقف يراوح في الغالب بين الاحتقار والعداء السافر للغة العربية وثقافتها، الأمر الذي أدى/يؤدي إلى تجلي حالة من الاغتراب aliénation عند هؤلاء المتعلمين التونسيين إزاء لغتهم وثقافتهم الوطنيتين (Ruf, 1974: 233-79). وليس من الصعب، من وجهة نظر المختصين في العلوم الاجتماعية، فهم حالة الاغتراب هذه وتفسيرها. فمن جهة، لا يعطي تعليم البعثات الفرنسية بطريقة شبه كاملة للمتعلمين التونسيين فرصة لتعلم اللغة العربية الفصحى. واللغة – كما رأينا في إطارنا الفكري في مطلع هذا البحث – هي أم الرموز الثقافية. فإن حدوث القطيعة والجفاء والاغتراب بين هؤلاء المتعلمين التونسيين ولغتهم العربية هو بالتأكيد عامل ذو تبعات خطيرة على حضور واستمرار تماسك بقية عناصر منظومة الرموز الثقافية الأصلية والوطنية للمجتمع التونسي وما لذلك من أثر، مثلاً، على إرباك الانتساب الهوياتي لدى هؤلاء المتعلمين التونسيين. ومن جهة ثانية، فإن تعلم التونسيين للغة الفرنسية وثقافتها في كل من نظام تعليم البعثات الفرنسية ونظيره الصادقي تم أيضاً في ظروف الهيمنة الاستعمارية الفرنسية على المجتمع التونسي. أي أن العلاقة بين الطرفين كانت علاقة بين غالب ومغلوب «فالمغلوب مولع أبداً بتقليد الغالب»، كما يقول ابن خلدون. ونتيجة لهذا الوضع، تفيد الملاحظات الميدانية أن المستعمر الفرنسي قد نجح، إلى حد كبير، في بث عقلية الاحتقار للغة العربية وثقافتها بين خريجي هذين الصنفين من التعليم التونسي في عهد الاستعمار. وبالطبع، فالموقف التحقيري للغة العربية وثقافتها هو أسوأ بكثير عند التونسيين الذين درسوا في نظام تعليم البعثات الفرنسية وما شابهه. وتؤكد أيضاً الملاحظة الميدانية اليوم أن موروث هذه العقلية

(8) كان هذا النظام التعليمي موجوداً بقوة في المراكز الحضرية على الخصوص في عهد الاستعمار الفرنسي للبلاد التونسية. ولا يزال هذا النظام التعليمي حاضراً في المجتمع التونسي اليوم بمسميات وأمثال مختلفة.

التحقيرية للغة العربية وثقافتها لا يزال منتشراً كثيراً بين الأجيال الجديدة للمتعلمين التونسيين، وذلك بعد نحو نصف قرن من الاستقلال.

أما اتجاه التونسيين الذين زاولوا تعليمهم في جامع الزيتونة فيغلب عليه، كما رأينا، الاعتزاز باللغة العربية وثقافتها والغيرة والحماس للدفاع عنهما قبل الاستقلال وبعده. كما يلاحظ أن خريجي النظام التعليمي الزيتوني هم أيضاً الأقوى انتماء إلى الهوية العربية الإسلامية بين المتعلمين التونسيين. ويتفق هذا مع الرؤية النظرية لعلمي الاجتماع والأنثروبولوجيا، من ناحية، والمعطيات الميدانية، من ناحية أخرى (محمود الذوادي، 1995).

فمن وجهة نظر العلوم الاجتماعية، فإن تلك الفروق في اتجاهات المتعلمين التونسيين إزاء اللغة العربية/لغتهم الوطنية تعود في المقام الأول إلى نوعية عملية التنشئة الرموزية الثقافية التعليمية التي تلقوها في نظم التعليم التونسية التي درسوا فيها والمشار إليها في متن البحث وهوامشه. فهؤلاء المتعلمون كلهم تونسيون ينادي دستور بلادهم في أول بنوده بوضوح بأن اللغة العربية هي لغتهم الوطنية التي يجب – باعتبارها لغتهم الأولى – أن تحظى عندهم بعلامات إيجابية جداً على المؤشرات الستة التي قسنا بها في هذا البحث علاقة المتعلمين التونسيين باللغة العربية.

وكما رأينا، فإن تقييمنا لتلك العلاقة أبرز أن العلامات ضعيفة على المستويات الستة المستعملة لمعرفة مكانة اللغة العربية عند المتعلمين التونسيين. ومن ثم، فالسبب في ضعف علاقتهم باللغة العربية لا بد أن يرجع أساساً إلى التنشئة الرموزية الثقافية للمدارس والمعاهد والجامعات التي درس فيها هؤلاء المتعلمون التونسيون، كما يتجلى ذلك الاختلاف، مثلاً، في منظومات الرموز الثقافية للنظام التعليمي الزيتوني والنظام المزدوج واللغة والثقافة والنظام التعليمي المفرنس كما بيّنا ذلك سابقاً. وهذا ما يؤكده مفهومنا للرموز الثقافية الذي يرى أن تلك الرموز هي المحددة الحاسمة لسلوكات الناس واتجاهاتهم لأن الرموز الثقافية هي العمود الفقري في تشكيل هوية الإنسان.

سادساً – أسباب اتجاهات خريجي أصناف التعليم الثلاثة من اللغة العربية:

وللتفصيل أكثر في مسألة التنشئة الرموزية الثقافية نحلل أسباب الفروق بين هذه الأصناف الثلاثة من المتعلمين التونسيين إزاء اللغة العربية وثقافتها، من ناحية،

والانتماء إلى الهوية العربية الإسلامية، من ناحية ثانية. يتساوى كل هؤلاء المتعلمين في أن جميعهم ذهبوا إلى الدراسة في العهد الاستعماري، لكنهم يختلفون شديد الاختلاف في لغات التعليم والثقافة. ويتضح هذا بأكثر قوة في المقارنة بين تعليم الزيتونيين ونظرائهم التونسيين في تعليم البعثات الفرنسية. فبينما تسيطر اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية على التكوين التعليمي لخريجي جامع الزيتونة وفرعه، فإن اللغة الفرنسية وثقافتها هما المهيمنتان على التكوين التعليمي للتونسيين الذين درسوا في مدارس البعثات الفرنسية. فوجود المستعمر الفرنسي في القطر التونسي لا يبدو أنه أثر على اعتزاز المتعلمين الزيتونيين باللغة العربية وثقافتها وبالانتساب المتين للهوية العربية الإسلامية. يوحي هذا الأمر بأن التجذر في اللغة الوطنية وثقافتها قد حمى بقوة المتعلمين الزيتونيين من أعراض الارتباك في انتمائهم للهوية العربية الإسلامية ومن معالم الجفاء والاحتقار للغة العربية وثقافتها. وفي المقابل، فإنه يلاحظ على المتعلمين التونسيين خريجي تعليم البعثات الفرنسية ليس فقط فقدانهم لشعور الاعتزاز باللغة العربية وثقافتها بل الشعور بالاغتراب وحتى العداوة لهما أيضاً. ولا بد أن يكون لذلك انعكاسات سلبية على الانتماء القوي غير المتذبذب للهوية العربية الإسلامية عند هذا النوع من المتعلمين التونسيين في عهدي الاستعمار والاستقلال. وكما بينّا من قبل، فاللغات الوطنية تأتي في المقام الأول بالنسبة لتحديد هويات الشعوب كما تشهد بذلك هويات أفراد المجتمعات الأوروبية مثل فرنسا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا والبرتغال. ويتفق هذا مع كل من مركزية اللغة في منظومتنا للرموز الثقافية وبحوث علم الاجتماع على الخصوص. فاللغة في منظومتنا هي أم الرموز الثقافية جميعاً، أي أنها تحتل، دون منافس، مركز الثقل في منظومة الرموز الثقافية: اللغة والعقيدة والفكر والمعرفة/ العلم والقوانين والأساطير والقيم والأعراف الثقافية... فالمتعلمون التونسيون الدارسون في مدارس البعثات الفرنسية في العهد الاستعماري يتعلمون في المقام الأول اللغة الفرنسية، ومن ثم الفكر والتاريخ والمعرفة والعلم والقوانين والقيم والأعراف الثقافية الفرنسية، ولا يتعلمون في أحسن الأحوال إلا النزر اليسير من اللغة العربية والفكر والتاريخ والعلم والمعرفة والقوانين والقيم والأعراف الثقافية من الحضارة العربية الإسلامية. وبتعبير العلوم الاجتماعية، فإن هؤلاء التونسيين قد تعرضوا إلى تنشئة اجتماعية **socialization** مكثفة في منظومة الرموز الثقافية للمستعمر الفرنسي.

أما الاتجاه العام لخريجي المدرسة الصادقية ذوي الازدواجية القوية من اللغة العربية والانتماء للهوية العربية الإسلامية فهو «اتجاه البين بين». أي أنهم ليسوا بشديدي التحمس والدفاع عن اللغة العربية والهوية العربية الإسلامية مثل الزيتونيين، ولا هم يشكون من قوة علاقة الجفاء والاغتراب مع اللغة العربية وضعف الانتساب إلى الهوية العربية الإسلامية كما هو الأمر عند المتعلمين التونسيين خريجي نظام تعليم البعثات الفرنسية. وبعبارة أخرى، فإنه يمكن وصف موقف المتعلمين الصادقيين من اللغة العربية والهوية العربية الإسلامية بأنه اتجاه يغلب عليه التذبذب؛ إذ يلاحظ على أغلبيتهم تحيز أكبر لصالح اللغة والثقافة الفرنسيتين. فلا يكاد يوجد بينهم من يتحمس ويدافع ويغار في المقام الأول بكل تلقائية وقوة على اللغة العربية وثقافتها. وتفيد الملاحظات الميدانية المتكررة بهذا الصدد بأنه يمكن القول: إن الصادقيين الذين يتحمسون ويدافعون ويغارون على استعمال اللغة الفرنسية وثقافتها في المجتمع التونسي هم أكثر بكثير من الصادقيين الذين يتبنون هذا الاتجاه نفسه بالنسبة للغة العربية وثقافتها الوطنيتين[9]. وهذا ما ينبغي أن يفسر أيضاً طبيعة تحالف الصادقيين مع بقية

(9) يفتخر خريجو المدرسة الصادقية بأنهم يتقنون اللغة العربية الفصحى، وهذا صحيح عند أغلبيتهم. ولكن هذا لم يؤد عند معظمهم إلى **تطبيع علاقتهم** بالكامل مع اللغة العربية: لغتهم الوطنية. بل شهد تاريخ تونس بعد الاستقلال بأن أغلبية وزراء التربية الصادقيين لم يكونوا متحمسين لفكرة التعريب الشامل والكامل في التعليم. وعليه، فمجرد إتقان اللغة العربية وحذقها من طرف الصادقيين لم **يضمن** عند أغلبيتهم وجود الاتجاه المتحمس والمدافع والمناضل لصالح اللغة العربية. ويبدو أن مثل ذلك الاتجاه متأثر بعاملين:
أ – حضور الموروث الاستعماري لديهم لتحقير اللغة العربية ويعززه تكوينهم التعليمي نفسه. ب – حضور **عامل إيديولوجي متحيز للغرب** عندهم يجعلهم لا يؤمنون بقوة بأن اللغة العربية هي لغتهم الوطنية **الأولى** وهي مؤهلة لتصبح لغة التعامل بين كل التونسيين في كل مجالات حياة مجتمعهم بما فيها قطاعات المؤسسات الحديثة. لقد لاحظنا **التأثير الإيجابي للإيديولوجيا** لصالح اللغة العربية في المجتمع الجزائري. فعهد الرئيس بومدين اتصف بالمناداة علناً بتعريب المجتمع الجزائري ضمن إيديولوجيا التحرر الكامل من الاستعمار الفرنسي. فوجدنا في أثناء تدريسنا بجامعة قسنطينة في بداية 1981 اتجاهاً **قوياً مناصراً** لتجذير اللغة الوطنية (اللغة العربية) بالتعبير الجزائري بين الأساتذة الجامعيين ذوي التكوين المفرنس أصلاً. وهذا ما نجده ضعيفاً أو مفقوداً عند نظرائهم التونسيين، إذ يبدو أن غياب إيديولوجيا القيادة السياسية في العهد البورقيبي لصالح توطين اللغة العربية بالمجتمع التونسي أسهم كثيراً في تكريس الاتجاه الفاتر للتونسيين اليوم من لغتهم الوطنية. إن مصطلح **التحرر/الجلاء اللغوي الثقافي مفقود** بالكامل في قاموس النخب السياسية والثقافية وعند أغلبية التونسيين المتعلمين لفترة ما بعد الاستقلال. فالتونسيون يحتفلون كل عام بعيدي الجلاء العسكري والفلاحي لفرنسا؛ لكن لا يوجد ذكر منذ الاستقلال للجلاء/التحرر اللغوي الثقافي من المستعمر القديم. انظر دور الإيديولوجيا في توطين اللغة في: محمود الذوادي (1999): «في سوسيولوجيا أسباب نجاح وتعثر توطين اللغة في كل من المجتمع الجزائري والتونسي والكيباكي». **المستقبل العربي،** العدد 142، كانون الأول/ديسمبر: 51–54.

المتعلمين التونسيين الأكثر تفرنساً لغة وثقافة ضد الزيتونيين بالمجتمع التونسي المعاصر. وكما أشرنا سابقاً، فهذا المجتمع عرف ثلاثة أصناف من المتعلمين، وهم: الصادقيون، وخريجو تعليم البعثات الفرنسية، والزيتونيون. تشير الدلائل بوضوح إلى أن تقارب الصادقيين وتحالفهم مع المتعلمين التونسيين خريجي نظام تعليم البعثات الفرنسية هما أقوى بكثير من تقاربهم وتحالفهم مع الزيتونيين. أي أن التعليم الصادقي ذا الازدواجية القوية والإيديولوجيا الغربية لا يسمح عموماً لأصحابه بتبني اتجاه أكثر تعاطفاً مع الزيتونيين.

لا يصعب تفسير موقف الصادقيين الفاقد للتحمس والاعتزاز القويين باللغة العربية وثقافتها، وذلك بسبب عامل تكوينهم التعليمي المزدوج اللغة وثقافتها؛ إذ كان ينظر خطأ إلى تعليمهم على أنه مثالي في الازدواجية اللغوية والثقافية المتزنة مما يجعل الصادقيين ذوي موقف متساوي التحمس والاعتزاز على مستويي طرفي ازدواجيتهم اللغوية والثقافية (عربية وفرنسية). وكما رأينا، فتكوينهم التعليمي ينتمي في واقع الأمر إلى الازدواجية القوية التي تتفوق فيها اللغة الفرنسية وثقافتها على اللغة العربية وثقافتها.

وللتفصيل في هذا الأمر، يمكن ذكر وجود عاملين كان لهما التأثير على اتجاه الصادقيين المتحيز أكثر إلى اللغة والثقافة الفرنسيتين؛ يتمثل الأول في القول: إن طرفي الازدواجية في التعليم الصادقي لم يكونا متساويين بالكامل فعلاً، كما بينا. أي أن تمكن خريجي المدرسة الصادقية في اللغة الفرنسية وثقافتها كان أقوى من تمكنهم في اللغة العربية وثقافتها، وهذا ما أكدناه[10]. وتسهل هذه المعطيات بالطبع، فهم وتفسير تحيز الصادقيين الأكبر للغة الفرنسية وثقافتها.

أما العامل الثاني المرشح للتأثير على اتجاه الإعجاب والانبهار لدى الصادقيين باللغة والثقافة الفرنسيتين فهو عامل الاستعمار. والصادقيون حتى إن كان نظام تعليمهم مثالياً في القرب من الازدواجية اللغوية والثقافية المتزنة، فإنهم كانوا يزاولون دراستهم في عهد الاحتلال الفرنسي لبلدهم. وبالتعبير الخلدوني، فقد كانوا في موقع

(10) يتفوق استعمال اللغة الفرنسية وثقافتها على اللغة العربية وثقافتها في المدرسة الصادقية؛ إذ الفرنسية لم تكن في الغالب لغة تدريس العلوم والتاريخ الفرنسي فقط... بل أيضاً لغة تدريس حتى النحو العربي.

المغلوب المولع بتقليد الغالب بما في ذلك في لغته وثقافته اللتين نجح المستعمر في نشر دعوته الإيديولوجية بين الصادقيين والمتعلمين التونسيين في مدارس البعثات الفرنسية بأن اللغة الفرنسية وثقافتها هما أكثر رقياً وتحضراً من اللغة العربية وثقافتها.

وهكذا ولدت بين هذين الصنفين من المتعلمين التونسيين علاقة غير سوية مع لغتهم وثقافتهم العربيتين الوطنيتين. علاقة تراوح، من جهة، بين شعور متعلمي البعثات الفرنسية بالاغتراب والجفوة وحتى العداء إزاء اللغة العربية وثقافتها، ومن جهة ثانية، حضور الاتجاه الفاقد للتحمس والغيرة والمتذبذب في معظم الأحوال إزاء مشروعية احترام مكانة اللغة العربية وثقافتها عند المتعلمين الصادقيين، وهو اتجاه نجح هؤلاء في نشره بعد الاستقلال بين سواد الشعب التونسي وخصوصاً المتعلمين منهم. إذ الصادقيون وخريجو التعليم المفرنس يمثلون الأغلبية التي قادت إدارة المجتمع التونسي بعد معركة التحرير من فرنسا في 1956.

سابعاً – وضع اللغة العربية بعد الاستقلال:

1 – في نظام التعليم التونسي:

تحسنت وضعية اللغة العربية على مستوى الاستعمال في المجتمع التونسي المستقل منذ 1956. فعُرِّب التعليم الابتدائي والإعدادي بالكامل. أي أن التلميذ التونسي يتعلم في هاتين المرحلتين كل مواد دراسته باللغة العربية، ويتعلم الفرنسية والإنجليزية (في المرحلة الإعدادية) بوصفهما مجرد لغتين أجنبيتين. لكن يفاجأ التلميذ التونسي في مرحلة التعليم الثانوي بغياب استعمال أساتذته للغة العربية في تدريسه الرياضيات والفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية. فيصبح يدرس كل هذه المواد باللغة الفرنسية. ويرى الكثيرون أن لهذا التغيير المفاجئ انعكاسات بيداغوجية سلبية على تعلم التلميذ التونسي وآثار ذلك من الناحية النفسية على علاقته باللغة العربية، لغته الوطنية.

أما على المستوى الجامعي فلا تستعمل اللغة العربية لغة تدريس في الجامعات والكليات والمعاهد العليا التونسية التي تدرس العلوم الطبيعية والفيزياء والكيمياء والرياضيات وغيرها من العلوم الحديثة، بل تدرس هذه العلوم بلغة موليار. ويمثل غياب تدريس كل تلك العلوم باللغة العربية امتداداً طبيعياً لفرنسة تدريس العلوم الذي بدأ في المرحلة الثانوية، كما رأينا. ولا يعني هذا، بأي حال من الأحوال، أن مقررات العلوم الاجتماعية والإنسانية، مثلاً، تدرس بالضرورة باللغة العربية في الجامعات والكليات

والمعاهد العليا التونسية. فمن ناحية، ليس هناك قوانين في تلك المؤسسات تجبر أعضاء هيئة التدريس على استعمال اللغة العربية في تدريس الطلبة مقررات العلوم الاجتماعية مثل علم النفس والاجتماع والتاريخ والجغرافيا. أي أن اختيار لغة التدريس (عربية أو فرنسية) هو في المقام الأول اختيار الأستاذ المدرس. ومن ناحية أخرى، عرفت المؤسسات الجامعية التونسية أخيراً تراجعاً في عملية التعريب لصالح تدريس متزايد باللغة الفرنسية لمقررات العلوم الاجتماعية والإنسانية ولزوم قيام الطلبة أيضاً بتحرير أجوبة امتحاناتهم وكتابة بحوثهم باللغة الفرنسية في تلك المقررات إذا كانوا قد درسوها بهذه اللغة، بينما كان لهم الحق سابقاً في الإجابة باللغة العربية إن هم شاؤوا ذلك (علي القاسمي، 2003: 4–25).

يشير هذا التشخيص الوصفي الموجز لوضع استعمال اللغة العربية في المؤسسات الجامعية التونسية إلى أن هذه اللغة لا تتمتع بالمكانة الأولى عند الأساتذة وطلبتهم باعتبارها لغة وطنية، كما هو سائد في المؤسسات الجامعية في المجتمعات المتقدمة والكثير من المجتمعات النامية حيث تتبوأ اللغة الوطنية الصدارة في استعمالها في التدريس وفي بقية الأنشطة المعرفية والعلمية الجارية في تلك المؤسسات الجامعية. إن عدم وجود قوانين في المؤسسات الجامعية التونسية تعطي اللغة العربية حقها في أن تكون لغة التدريس الأولى – بوصفها اللغة الوطنية التي يعترف بها الدستور التونسي، بدون منافس لها، في أول بنوده – وفقدان الشعور بالاعتزاز والاحترام والتحمس إلى اللغة العربية بين الأساتذة الجامعيين وطلبتهم يهمشان فعلاً موقع اللغة العربية على كل من المستوى المؤسساتي الجامعي والجانب النفسي للأساتذة الجامعيين وطلبتهم إزاء اللغة العربية. وهو أمر يتناقض مع ما ينبغي أن تحظى به اللغة الوطنية لدى مؤسسات وأفراد المجتمع ذي السيادة الكاملة في مجال التحرر اللغوي الثقافي.

2 – عند القيادة السياسية:

تولى الزعيم الحبيب بورقيبة رئاسة البلاد التونسية بعد الاستقلال لفترة تزيد على ثلاثة عقود (1956–1987) هيمن فيها التونسيون أصحاب الازدواجية اللغوية الثقافية القوية (الصادقيون) وذوو تعليم البعثات الفرنسية على أهم مراكز السلطة والمسؤولية في المجتمع التونسي المستقل الحديث (أحمد عبدالسلام، 1994: 95؛ محمود الذوادي، 1983: 237–243). فلم يولّ، مثلاً، في العهد البورقيبي خريجو الزيتونة وجامعات الشرق الأوسط مناصب وزارية أو مناصب أخرى عالية في

المؤسسات الوطنية. ولا يقتصر الأمر فقط على تهميش المتعلمين التونسيين ذوي التكوين العربي الإسلامي وانبهار الرئيس بورقيبة بالغرب وتحمسه للتقرب من الحضارة الغربية، بل يرجع الأمر في الأساس إلى اتجاه أغلبية المتعلمين التونسيين الصادقيين وخريجي مدارس البعثات الفرنسية الذين يسيطرون على مقاليد السلطة بمستوياتها المختلفة في تسيير حركة المجتمع التونسي الجديد. وكما رأينا، في عهد الاستعمار، تحالف الصادقيون مع المتعلمين التونسيين أصحاب التكوين التعليمي للبعثات الفرنسية ضد الزيتونيين، فإن فترة ما بعد الاستقلال في العهد البورقيبي، على الخصوص، تشهد التحالف نفسه لكن على مستوى مجتمعي شامل تتجلى معالمه أكثر في أعلى هرم السلطة السياسية والمناصب القيادية في إدارة شؤون العباد وتوجه البلاد. وبعبارة أخرى، فالتونسيون أصحاب التكوين اللغوي والثقافي العربي الإسلامي تعرضوا/يتعرضون إلى عملية إقصاء exclusion من المناصب العالية والقيادية في المجتمع التونسي الحديث. أي أنهم ضحية لتمييز لغوي ثقافي سلبي لا إلى تمييز عنصري كما يمارس وموروس في المجتمع الأمريكي ومجتمع جنوب أفريقيا، على سبيل المثال. إن لذلك التمييز اللغوي الثقافي السلبي انعكاسات خطيرة على مستويات الوطنية والاستقلال والعدالة الاجتماعية في المجتمع التونسي المستقل. فاستمرار الاتجاه التحقيري للغة والثقافة الوطنيتين عند أغلبية التونسيين المتعلمين لفترة ما بعد الاستقلال هو بالتأكيد اتجاه في الاتجاه المعاكس لكسب مشروعية رهان الهوية الوطنية والاستقلال الحقيقيين للمجتمع التونسي الحديث. فاللغة العربية هي اللغة الوطنية في دستور البلاد وكذلك ثقافتها. ومن ثم فينتظر أن تكونا في تونس المستقلة رمزي الوطنية والتحرر من الاستعمار الفرنسي. إن ممارسة التمييز اللغوي الثقافي السلبي إزاء التونسيين ذوي التعليم العربي الإسلامي هي سياسة مضادة لكسب رهان المعنى الحقيقي للوطنية اللغوية الثقافية. فبدل أن يحظى هؤلاء، في عهد الاستقلال، بالترحيب والتعيين في أهم المناصب والمسؤوليات للحكومات التونسية المتعاقبة منذ فجر الاستقلال، نجدهم يلقون الإقصاء من تلك المناصب والمسؤوليات في غالب الأحيان لمجرد تكوينهم التعليمي المتجذر في أهم عنصرين مكونين للهوية الجماعية التونسية، ألا وهما اللغة العربية والثقافة الإسلامية. إنها بالتأكيد لمفارقة فجة أن يعامل أصحاب أعز مكونين للهوية الوطنية الجماعية التونسية معاملة تحط من شأن أبرز أسس الهوية الوطنية التونسية، وتعرضها من ثم إلى أعراض التذبذب

والارتباك، إنها أعراض عارية لما سميناه التخلف الآخر (محمود الذوادي، 2002).

إن فشل المجتمع التونسي في عهد الاستقلال في معاملة المتعلمين التونسيين ذوي التكوين العربي الإسلامي القوي كبقية المتعلمين التونسيين الآخرين هو سياسة فاضحة في عدم ممارسة المساواة والعدالة الاجتماعية مع المتعلمين التونسيين الأكثر تجذراً وارتباطاً بأهم المكونات الرئيسة (اللغة العربية والثقافة الإسلامية) للشخصية الوطنية التونسية.

3 – القرار الرئاسي بتعريب الإدارة:

صدر في 29 تشرين الأول/ أكتوبر 1999 منشور من الوزير الأول التونسي موجه إلى الوزراء وكتاب الدولة والولاة (المحافظين) والرؤساء المديرين العامين للمنشآت العمومية (الحكومية) ورؤساء المجالس البلدية. يطالب هذا المنشور بقوة تعريباً شاملاً وكاملاً لكل أنواع الإدارات الحكومية التونسية مع نهاية شهر كانون الأول/ ديسمبر 2000.

يعلن هذا المنشور في مقدمته «إن اللغة العربية من مقومات الانتماء الحضاري، وهي رمز السيادة الوطنية، وركن من أركان الدستور، لذلك أولاها سيادة رئيس الجمهورية فائق اهتمامه فصدر بإذن منه القانون عدد 64 لسنة 1993 المؤرخ في 5/7/1993 الذي جعل من الصيغة العربية للنصوص القانونية والترتيبية المرجع الوحيد في كل المجالات، كما أذن بتعميم استعمال اللغة العربية في الإدارة والمحيط العام وأن يدرج موضوع العناية بها ضمن مخططات تأهيل الإدارة».

وتنفيذاً لقرار أعلى هرم السلطة السياسية في البلاد في عهد الرئيس بن علي حددت خطوات عديدة لتحقيق مشروع التعريب الشامل والكامل في الإدارات الحكومية التونسية في الأجل المشار إليه. نذكر من هذه الخطوات العينة التالية:

1 – عدم اعتماد أي لغة أجنبية في المراسلات إلى المواطنين التونسيين مع إمكانية مخاطبة الأجانب بلغتهم.

2 – تحجير استعمال أي لغة أجنبية في الأعمال الداخلية الخاصة بالإدارة والمنشآت العمومية (الحكومية) من مناشير وقرارات ومذكرات وتقارير ومراسلات بين الإدارات التونسية، وذلك ابتداء من غرة كانون الثاني/ يناير 2000.

3 – بعد 31 كانون الأول/ ديسمبر 2000 لا يمكن استعمال المطبوعات والمنظومات الإعلامية التي لا تستعمل اللغة العربية إلا إذا اقتضت ذلك مصلحة

عامة **وبترخيص** من قبل الوزير الأول.

4 – **رفع** تقرير إلى الوزير الأول حول تطبيق هذا المنشور مع ذكر الصعوبات، إن وجدت، وتقديم مقترحات في شأنها، وذلك قبل 31 كانون الأول/ديسمبر 2000.

يأتي القرار الرئاسي لصالح **التعريب الكامل والشامل للإدارة التونسية** لأول مرة بعد ثلاث وأربعين سنة (1956–1999) من تحرير البلاد التونسية من الاستعمار الفرنسي؛ إذ وقع قبل هذا التاريخ تعريب محدود في بعض قطاعات الإدارات الحكومية التونسية مثل وزارتي الداخلية والدفاع.

إن هناك مشروعية كبرى بهذا الصدد لطرح **سؤالين مهمين**: 1 – لماذا تأخر قرار مشروع التعريب الكامل والشامل للإدارة التونسية إلى أكثر من أربعين عاماً بعد الحصول على الاستقلال؟ 2 – لماذا يتخذ هذا القرار بجدية منذ 1999؟

يمكن البحث عن أسباب حدث قرار التعريب الشامل والكامل في الإدارات الحكومية التونسية، وذلك بطرح ثلاثة فروض رئيسة:

أ – عامل الزمن: يقول هذا الفرض إن المجتمع التونسي المستقل يحتاج إلى زمن كاف للقيام بالتعريب الشامل والكامل للإدارة التونسية التي ورثت نظام الإرث الإداري الاستعماري بما فيه استعمال اللغة الفرنسية. فبعد مرور أربعين سنة ونيف على استرجاع الاستقلال يصبح مناسباً تبني قرار التعريب الكامل والشامل وتنفيذه. وعلى الرغم مما لهذا الطرح من مقبولية ظاهرية، فإن مجتمعات نامية أخرى قامت بالتوطين الشامل والكامل للغاتها الوطنية في إداراتها في زمن أقصر بكثير من أربعين عاماً. فالتعريب الشامل والكامل لإدارات المجتمع الجزائري، من ناحية، واستعمال اللغة الوطنية الماليزية بالكامل في الإدارات الماليزية، من ناحية ثانية، مثالان من بين أمثلة كثيرة تثبت أن توطين اللغة بالكامل في المجتمعات يمكن أن يتم في مدة أقصر (محمود الذوادي، 2002: 136–154)، (Leclerc, 1986: 452-462).

ب – التعريب مطلب شعبي: يرى هذا الفرض أن قرار التعريب الشامل والكامل للإدارة الحكومية التونسية جاء رد فعل لمطالبة الجماهير التونسية بالتعريب. لا يبدو أن هناك مطالبة جماهيرية قوية وملحة لاتخاذ مثل قرار التعريب هذا:

1 – إن منشور الوزير الأول التونسي السابق الذكر لم يشر البتة إلى أن هذا القرار جاء تلبية لمطالبة الشعب التونسي بذلك. بل إن المنشور الوزاري ذاته يحاول إقناع المسؤولين التونسيين الكبار بمشروعية قرار التعريب الكامل والشامل

بطريقة إيديولوجية «إن اللغة العربية من مقومات الانتماء الحضاري وهي رمز للسيادة الوطنية وركن من أركان الدستور».

2 – إن تحليلنا لعلاقة التونسيين المتعلمين باللغة العربية، في الصفحات الأولى على الخصوص من هذا البحث، يبين أن أغلبية هؤلاء المتعلمين ينقصهم كثيراً الاستعمال الكامل شفوياً وكتابياً للغتهم الوطنية، ويفتقدون مواقف الاحترام والتحمس والغيرة والدفاع عن اللغة العربية: لغتهم الوطنية. ومن ثم فمن الصعب الحديث عن وجود قوي لصوت الجمهور التونسي بالنسبة للمناداة بتحقيق سريع لمشروع التعريب الشامل والكامل للإدارة التونسية. ولا بد أن يعود هذا الوضع إلى ما سميناه نجاح الصادقيين وخريجي التعليم الفرنسي في نشر اتجاه غير متعاطف ومتحمس للغة العربية بين أغلبية فئات المجتمع التونسي المستقل.

3 – هناك اقتناع قوي لدى أعلى هرم السلطة السياسية التونسية بوجوب القيام بسرعة بالتعريب الشامل والكامل للإدارات الحكومية، الأمر الذي يجعل هذه السلطة السياسية سباقة لشعبها في التحمس لإنجاز مشروع التعريب الكامل والشامل بالإدارات الحكومية التونسية (محمود الذوادي، 2002: 199–208).

وعند محاولة تعرف العوامل التي دفعت بالقيادة السياسية التونسية الحالية إلى الإقبال على مسألة التعريب الكامل والشامل في الإدارات الحكومية بالمجتمع التونسي ووضعها حيز التنفيذ، فإنه يبدو أن تلك العوامل يغلب عليها الطابع السياسي الجماعي والشخصي:

1 – طرحت بقوة من طرف الأحزاب والتيارات السياسية التونسية قضية مصالحة الشعب التونسي مع هويته العربية الإسلامية وذلك مباشرة بعد تغيير القيادة السياسية التونسية في السابع من تشرين الثاني/نوفمبر 1987 (جلول الجريبي، 1992: 19). ففي اتفاق الأطراف السياسية – في وثيقة الميثاق الوطني على ضرورة مصالحة المجتمع التونسي مع قطبي هويته: العروبة والإسلام (الميثاق الوطني، 1988: 9) – إشارة سياسية واضحة إلى التنديد بالعهد البورقيبي (1956–1987) الذي حاول طمس الهوية العربية الإسلامية في البلاد التونسية (عفيف البوني، 1992: 21). فجاءت خطب الرئيس زين العابدين بن علي مؤكدة أهمية مصالحة التونسيين مع هويتهم العربية الإسلامية: «إن حرصنا على التمسك بذاتيتنا الإسلامية العربية هو منطلق تعلقنا بالأبعاد المكملة لشخصيتنا الوطنية»

(عفيف البوني، 1992: 21)، (محمود الذوادي، 2003: 59–68). أما نص الميثاق الوطني فيتحدث بشفافية كاملة عن لزوم مصالحة الشعب التونسي مع اللغة العربية (لغته الوطنية): «إن المجموعة الوطنية مدعوة لدعم اللغة العربية حتى تكون لغة التعامل والإدارة والتعليم... من الواضح أنه لا تطوير للثقافة بغير اللغة الوطنية» (الميثاق الوطني، 1988: 10).

وعلى ضوء ما سبق، فإن القرار الرئاسي بالإتمام السريع لتعريب كل الإدارات الحكومية التونسية منسجم بالكامل مع دعوة الحساسيات السياسية التونسية المختلفة إلى المصالحة مع اللغة العربية بوصفها لغة وطنية وقطباً مركزياً للهوية الجماعية التونسية (محمود الذوادي، 1997، 29–50).

2 – أما علاقة القيادة السياسية التونسية الجديدة بقيادة الرئيس زين العابدين بن علي مع العالم العربي فهي أفضل بكثير مما كانت عليه في العهد البورقيبي؛ إذ أكدت هذه القيادة منذ البداية عزمها على توثيق علاقة تونس بمحيطها العربي، من ناحية، ورفع مستوى الاستقلالية عن فرنسا، من ناحية ثانية. فلم تعد توجد توترات سياسية بين القيادات السياسية العربية بالمشرق العربي والقيادة السياسية التونسية الجديدة كما كان الأمر في زمن قيادة بورقيبة مع عبدالناصر والقيادات البعثية العروبية على الخصوص.

3 – وعلى الرغم مما للعاملين السابقين من أهمية في إمكانية دفع القيادة التونسية إلى التحمس لمشروع التعريب الكامل والشامل في الإدارات التونسية، فإن علم النفس الاجتماعي، على الخصوص، يؤكد مركزية دور اتجاهات الأشخاص ومعتقداتهم في عملية إحداث التغيير في المجتمع (Gamson & Modigliani, 1979: 237-295). فيبدو أن للرئيس بن علي اقتناعاً شخصياً قوياً يناصر مشروع التعريب في المجتمع التونسي. فهو مثلاً، لا يعرف عنه أنه قد ألقى خطبه خارج البلاد بلغة أخرى غير اللغة الوطنية: اللغة العربية (محمود الذوادي، 1995: 25). إن تحمسه الظاهر لهذه الأخيرة جعل فعلاً أعلى هرم القيادة السياسية التونسية الحالية سباقاً لأغلبية المتعلمين في المجتمع التونسي بالنسبة للاحترام والاعتزاز القويين باللغة العربية (محمود الذوادي، 2002: 199–208).

ومما لم يساعد، بالتأكيد، على تضييق الهوة بين سواد الشعب التونسي وقيادته السياسية بالنسبة لاسترجاع اللغة العربية (اللغة الوطنية) لمكانتها السامية

المشروعة في عقول المواطنين التونسين وقلوبهم هو غياب الحملات الوطنية التوعوية منذ الاستقلال لصالح كسب رهان المصالحة التامة بين التونسيين ولغتهم الوطنية[11]. فمن المؤكد أن لمثل تلك الحملات بمختلف وسائل الاتصال والتوعية دوراً رئيسياً في تغيير اتجاهات المتعلمين التونسيين السلبية ومعتقداتهم إزاء اللغة العربية. وهذا ما تكرر إبرازه بحوث العلوم الاجتماعية المعاصرة. وهذا ما سوف يتجلى في آخر هذا البحث. فالنجاح في حملات التوعية الشاملة للمواطنين التونسيين بالمسألة اللغوية يجعل علاقتهم بلغتهم الوطنية علاقة طبيعية، كما هو الأمر اليوم عند المجتمعات المتقدمة على الخصوص. فالمجتمع التونسي كله مطالب – بحكم أخلاق الوطنية وقيمها – بأن يضع حداً لهذا الوضع غير السوي مع اللغة العربية.

إن تواصل هذا الوضع منذ الاستقلال يساعد على القول: إن المجتمع التونسي هو مجتمع ضعيف الوعي بمسألة التحرر/الاستقلال اللغوي والثقافي. ويرجع ذلك، في المقام الأول، إلى ضعف أو فقدان الإحساس والتحمس إلى اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية عند القيادات السياسية في العهد البورقيبي على الخصوص وعند معظم المتعلمين التونسيين المزدوجي اللغة والثقافة أو أكثرهم تفرنساً، بوصفهم خريجي مدارس البعثات الفرنسية أو ما شابهها، كما شرحنا ذلك من قبل.

ويشرح هذا الوضع بكثير من الشفافية مفهوم إعادة الإنتاج La Reproduction لعالم الاجتماع الفرنسي الكبير بيار بورديو (Pourdieu, 1970)؛ إذ يتجلى مما سبق أن لهذين الصنفين من المتعلمين التونسيين السيطرة الكبرى بعد الاستقلال في معظم القطاعات والمستويات لقيادة المجتمع التونسي وإدارته (أحمد عبدالسلام،

(11) عرف عن السلط التونسية منذ الاستقلال قيامها بحملات شعبية توعوية لغرس عادات ومواقف جديدة تقي المواطنين الأضرار، وتحسن من وضعهم مثل الحملات اليومية الإذاعية من أجل تغذية أفضل في برنامج «الدكتور حكيم» أو الحملات المتواصلة لصالح المستهلكين والسائقين و«التنظيم العائلي» (تنظيم الإنجاب). وفي المقابل، فلا يعرف عن السلط نفسها قيامها بحملات شعبية لصالح توعية التونسيين بضرورة تطبيع علاقاتهم بالكامل مع اللغة العربية (لغتهم الوطنية) بحيث يصبح استعمالهم لها يحتل تلقائياً المرتبة الأولى ويكسبون الشعور القوي والعفوي بالاعتزاز والغيرة والدفاع عن لغتهم الوطنية. إن استمرار غياب الحملات التوعوية حول اللغة العربية يفسره – كما نبين في هذا البحث – عدم تحمّس القيادات السياسية عموماً لمشروع التعريب وحضور التكوين اللغوي الثقافي المغترب لأغلبية المتعلمين التونسيين وما نتج عنه من اتجاه جماعي بينهم ضعيف التعاطف والتحمس لصالح اللغة العربية، لغتهم الوطنية.

1994: 95). ومن ثم فقد أثرا سلباً، في العمق، في عقلية التونسيين ووعيهم وذلك بعجزهم شبه الكامل عن المناداة علناً بضرورة الحصول على الاستقلال/الجلاء اللغوي والثقافي، مثلما دعوا وعملوا بحماس من أجل كسب الجلاء العسكري والفلاحي والاقتصادي. ومن ثم، يمكن اعتبارهم المسؤولين الأوائل في استمرار الحضور القوي لمعالم الاستعمار اللغوي والثقافي بالمجتمع التونسي بعد نحو نصف قرن من الاستقلال.

ثامناً – مستقبل مكانة اللغة العربية بالمجتمع التونسي:

بالمؤشرات الستة التي قسنا بها ضعف تحمس اتجاه المتعلمين التونسيين إزاء اللغة العربية وبالتحاليل التي قمنا بها لتفسير أسباب ذلك الاتجاه وآثاره على المجتمع التونسي ولغته الوطنية، يمكن القول: إن العلاقة بين هؤلاء المتعلمين واللغة العربية ليست بالعلاقة الطبيعية السوية التي تربط بين المجتمع ولغته في الظروف العادية. وبعبارة أخرى، فالمتعلمون التونسيون لم يقوموا بعد ما يقرب من نصف قرن من الاستقلال (1956) بتطبيع علاقتهم مع اللغة العربية، لغتهم الوطنية، وهو وضع تندرج دراسته في أدبيات ما يسمى اليوم بالبحوث لما بعد الاستقلال Post colonial Studies.

لكن الملاحظة الميدانية تشير إلى أن هؤلاء المتعلمين التونسيين غير متجانسين على مستوى معالم اتجاهاتهم إزاء اللغة العربية. ومن ثم، يمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أصناف:

1 – يمثل **الصنف الأول** أقلية معتبرة وذات تأثير حاسم على مسيرة اللغة العربية في المجتمع التونسي بسبب سيطرتها على القيادة السياسية منذ الاستقلال. تعرف هذه الأقلية المتعلمة باتجاهها المعادي أو في أحسن الأحوال غير المتحمس والملتزم بالنسبة لمسألة التعريب في المجتمع التونسي الحديث. تتبنى تلك الأقلية ذلك الاتجاه السلبي نحو اللغة العربية/اللغة الوطنية عن اقتناع جازم وقصد بارز متأثرة في العمق بتكوينها اللغوي الثقافي الاستعماري، كما بيّنا وبإيديولوجيا الانفتاح على فرنسا/الغرب، من جهة، والابتعاد عن العالم العربي وبخاصة تياراته السياسية العروبية والفكرية الإسلامية، من جهة أخرى. يمثل العهد البورقيبي (1956–1987) أحسن تمثيل السياسات المحدودة وغير المتحمسة وأحياناً المتراجعة والمتناقضة في مسيرة عملية التعريب بالمجتمع التونسي الحديث.

2 – أما **الصنف الثاني** من المتعلمين التونسيين فهم يمثلون أغلبية المتعلمين المزدوجي اللغة والثقافة لعهدي الاستعمار والاستقلال. يجاري هؤلاء عموماً استمرار الاستعمال الواسع للغة الفرنسية بالمجتمع التونسي المستقل لمجرد حكم العادة التي سارت عليها الأمور منذ الاستقلال والناتجة عن التنشئة المدرسية والتنشئة المجتمعية العامة، وليس اعتماداً على اقتناع قوي وإيديولوجيا مقنعة. وبمنظور علم النفس الاجتماعي فإن الاتجاه السلبي نسبياً لهذه الأغلبية التونسية المتعلمة نحو اللغة العربية لا يمكن أن يكون إلا اتجاهاً ضعيفاً وهشاً لا يكاد يصمد ويدافع عن نفسه حتى أمام أضعف عوامل التغيير؛ إذ إنه لا يستند إلى نظام عقائدي belief system متين ومتماسك. فهو، إذن، اتجاه مرشح للتغيير السهل متى توافرت أسبابه.

3 – هناك **أقلية صغيرة** جداً بين المتعلمين التونسيين شديدة التحمس والتزام مشروعية قضية التعريب، انطلاقاً من أنها – في نظرها – صلب الاستقلال/التحرر اللغوي الثقافي من الاستعمار الفرنسي، الذي دونه تبقى عملية الاستقلال منقوصة فعلاً في أعز جوانبها. إن أفراد هذه الأقلية الصغيرة هم أساساً خريجو التعليم الزيتوني أو جامعات الشرق العربي أو هم ينتمون إلى تيارات سياسية عروبية ويلتزمون بقوة قضاياها التي تأتي في طليعتها مسألة التعريب الكامل والشامل في المجتمعات العربية.

أما النظر إلى إمكانية تغيير اتجاه الصنفين الأول والثاني لصالح اللغة العربية، فإن اتجاه الصنف الثاني (أغلبية المتعلمين التونسيين) الذي تغلب عليه السلبية، يرجع إلى أن هؤلاء المتعلمين غير واعين، ومن ثم هم جاهلون بحساسية موضوع اللغة الوطنية، كما أوضحنا. وهذا ما يفسر إجماع هؤلاء المتعلمين على صحة واقع تردّي وضع اللغة بينهم كما تبينه المؤشرات الستة في هذا البحث. فهم يعترفون جماعياً بأن مكانة اللغة العربية غير مرضية بالمجتمع التونسي الحديث. ولكن على الرغم من ذلك فإن الملاحظة الميدانية تفيد أن اعترافهم لا يصاحبه عند الأغلبية الساحقة منهم تغيير سلوكي لغوي فعلي لصالح اللغة العربية. وهذا موضوع مهم في دراسات علم النفس الاجتماعي: كيف تتغير أولا تتغير الاتجاهات/الأفكار إلى ممارسات سلوكية. وتساعد ندرة التزام المتعلمين التونسيين الحديث الكامل بالعربية على تفسير ما نود تسميته بضعف نظام مناعة اللغة العربية عندهم، المتمثل في الغياب شبه الكامل لمراقبة ومقاومة استعمال الكلمات والجمل الفرنسية في حديثهم اليومي. ومن ثم يصح أن ننظر إلى علاقة أغلبية المتعلمين التونسيين

(الصنفيْن الأول والثاني) بلغتهم العربية بأنها تمثل مشكلاً ذا أبعاد متعددة. فاللغة، كما يؤكد إطارنا الفكري للرموز الثقافية، هي أم الرموز الثقافية البشرية جميعاً. ففقدان تطبيع متحدثيها لعلاقتهم معها هو أخطر أمر تتعرض له منظومة الرموز الثقافية في المجتمعات البشرية.

أما البعد الثاني لمشكل أغلبية المتعلمين التونسيين مع لغتهم العربية فهو يتمثل في استمرار الحضور القوي للاستعمار اللغوي الثقافي الفرنسي في المجتمع التونسي المستقل منذ 1956. أوليست التبعية اللغوية الثقافية لفرنسا هي الأبرز في معالم المجتمع التونسي الحديث؟ أوليست تلك التبعية هي الأطول والأخطر من كل أنواع التبعيات الأخرى التي تربط المستعمر القديم بمجتمعات الجنوب النامية. وإذا كان الأمر كذلك مع خطورة الاستعمار اللغوي الثقافي، فإن الحكمة والاستراتيجية الحصيفة لا بد أن تطالبا مجتمعات الجنوب بإعطاء التخلص من التبعية اللغوية الثقافية الاستعمارية الأولوية رقم 1 في سياساتها التنموية. وهذا ما فشل فيه المجتمع التونسي المعاصر في ظل تأثيرات قيادات سياسية غير متحمسة للتعريب في العهد البورقيبي على الخصوص وهيمنة أغلبية المتعلمين التونسيين من الصنفين الأول والثاني على إدارة مقادير المجتمع التونسي الحديث. كان لكل هذه العوامل، قطعاً، ثقلها في تثبيت واستمرارية أقدام ما سميناه بظاهرة التخلف الآخر بهذا المجتمع.

أما على المستوى الاجتماعي النفسي، فاللغة العربية/اللغة الوطنية ليست هي لغة الاستعمال الأولى في كل قطاعات المجتمع التونسي الحديث. بل طالما نجدها هي اللغة الثانية في الاستعمال بين المتعلمين التونسيين بعد اللغة الفرنسية في الكثير من أوجه الحياة الاجتماعية بالمجتمع التونسي. فعدم تأهيل اللغة العربية لتصبح اللغة الأولى للمجتمع التونسي المستقل أفقدها مكانتها الاجتماعية الحقة في إدارة حياة المجتمع التونسي بوصفها لغته الوطنية الوحيدة. وهذا ما يفسر ضعف الاتجاه الإيجابي لدى أغلبية المتعلمين التونسيين إزاء لغتهم العربية. فكيف يستطيع هؤلاء تطبيع علاقتهم بلغتهم الوطنية وهي ليست لغة المجتمع الأولى ولا سيما في القطاعات الحديثة؟ فمنظور علم النفس الاجتماعي يقول: إن الجانب النفسي الجماعي طالما يكون حصيلة لواقع اجتماعي. فضعف شعور الاعتزاز والاحترام للغة العربية/اللغة الوطنية عند أغلبية المتعلمين التونسيين يرجع إلى

عاملين اجتماعيين متتاليين منذ القرن التاسع عشر: 1 – احتلال فرنسي كامل للقطر التونسي بين 1881 و1956. 2 – عدم تمكين القيادات السياسية ومعظم المتعلمين التونسيين اللغة العربية لتكون اللغة الأولى في تسيير أمور المجتمع التونسي لفترة ما بعد الاستقلال.

إن معطيات هذا البحث حول مشكل اللغة العربية في المجتمع التونسي الحديث لا تعني أبداً استحالة استرجاع اللغة العربية لمكانتها لغة وطنية أولى في تسيير كل شؤون هذا المجتمع، وذلك لسببين رئيسيين:

أولاً: لأن الاتجاه الجماعي الناقص التعاطف مع اللغة العربية عند أغلبية المتعلمين التونسيين هو اتجاه مكتسب وليس بالفطري، كما بينا في هذا البحث. ومن ثم فهو قابل للتغيير إن توافرت الأسباب.

ثانياً: إن الاستنجاد بمنظور علم النفس الاجتماعي يساعد كثيراً على معرفة أفضل السبل لتغيير اتجاهات الأفراد والمجتمعات. فما هي بكل بساطة نصيحة هذا العلم لتغيير الاتجاه السلبي الجماعي لأغلبية المتعلمين التونسيين نحو اللغة العربية إلى اتجاه إيجابي جماعي عندهم؟

ولعل أنسب وأسهل ما يوصي به علماء النفس الاجتماعيون بهذا الصدد هو استعمال حملات التوعية الشعبية العامة والخاصة (النخب المثقفة والقيادات السياسية) المتواصلة لتحسيس أغلبية المتعلمين التونسيين ورفع مستوى وعيهم بخصوص اللغة العربية لغة وطنية وحيدة للمجتمع التونسي ولغة انتماء للحضارة العربية الإسلامية. فمما لا شك فيه أن مثل تلك الحملات الواسعة والمستمرة قادرة على إحداث تغييرات جذرية وكبيرة ومتوسطة وصغيرة في المعالم السلبية التي يحتضنها النسق العقائدي belief system لأغلبية المتعلمين التونسيين حول اللغة العربية، لغتهم الوطنية. علماً أنه لا يعرف عن السلطات التونسية تبنيها بجدية لسياسات التوعية الشاملة والشفافة لصالح اللغة العربية منذ الاستقلال. ونكتفي هنا بذكر مثال ميداني حول أهمية دور التوعية في تعديل أو تغيير اتجاه أغلبية المتعلمين التونسيين لصالح اللغة العربية. فقد كلفنا طلبتنا في الجامعة التونسية منذ 2003 قراءة كتابنا «التخلف الآخر» مطالعة إجبارية في بعض المقررات التي ندرسها. فسجلنا ثلاث ملاحظات رئيسة على عينة الطلبة (150) التي قرأت الكتاب: أ – أصبح هناك وعي كاسح بين أغلبية الطلبة بمشروعية الاعتزاز باللغة العربية

والدفاع عنها واحتج العديد منهم على صمت أساتذتهم على إثارة هذا الموضوع. ب – اعترف عدد كبير من الطلبة بأنهم بدأوا ينقصون فعلاً استعمال الكلمات والعبارات الفرنسية في حديثهم اليومي. ج – أما الأقلية الصغرى منهم فقد تبنت اتجاهاً أكثر تشدداً تكاد تمنع به نفسها من استعمال اللغة الفرنسية في الحياة اليومية.

يشير هذا المثال الإمبريقي إلى أن عملية التوعية بالمسألة اللغوية هي مفتاح للتغيير الإيجابي في اتجاهات أغلبية المتعلمين التونسيين إزاء اللغة العربية. وهي نتيجة يتنبأ بها بسهولة منظور علم النفس الاجتماعي؛ وذلك لوجود قيادة سياسية أكثر تحمساً للتعريب، من ناحية، وعدم معارضة أغلبية المتعلمين التونسيين لمشروع التعريب، من ناحية أخرى.

وإذا كانت الحملات التوعوية الملتزمة لصالح اللغة العربية هي الاستراتيجية الأولى الفعالة في تطبيع العلاقة بين أغلبية المتعلمين التونسيين ولغتهم العربية، فإن هناك عوامل أخرى تساعد على تسهيل عملية التطبيع تلك:

1 – كما أشرنا في متن البحث، فالقرار الرئاسي سنة 1999 بالتعريب الكامل للإدارات الحكومية التونسية قرار لصالح اللغة العربية ولا سيما أنه يأتي من أعلى هرم السلطة السياسية التونسية التي عرقلت مسيرة التعريب في العهد البورقيبي كما بينا. لكن حتى ينجح هذا القرار على مستوى التنفيذ بسهولة وسرعة كبيرين فإنه يحتاج، بالتأكيد، إلى حملات توعوية متواصلة تساعد على تعديل في اتجاهات المتعلمين التونسيين وتغييرها، وبخاصة أصحاب النفوذ السياسي والثقافي منهم، نحو لغتهم العربية. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه يحسن تحويل قرار التعريب 1999 إلى بند رسمي في الدستور التونسي يلزم كل القيادات السياسية والمثقفة التونسية وكل التونسيين الاستعمال الكامل للغة العربية في كل قطاعات المجتمع التونسي.

2 – مما لا شك فيه أن هوية الشعب التونسي الحديث هي في المقام الأول هوية عربية إسلامية بلا منازع. فالدين الإسلامي واللغة العربية وثقافتهما هما المكونان الرئيسان للشخصية القاعدية التونسية. فالانتساب إلى الإسلام والعروبة يحفز بكل تأكيد أغلبية التونسيين إلى تطبيع علاقتهم باللغة العربية/ لغتهم الوطنية.

وهكذا يتضح من معطيات هذا البحث أن الفوز في وضع حد لحالة الاغتراب

بين أغلبية المتعلمين التونسيين ولغتهم العربية سوف يصبح أمراً موثوقاً به ومسألة وقت فقط إذا اجتمع عنصران رئيسان بالمجتمع التونسي الحديث:

1 – **قيادات سياسية تونسية وطنية** متحمسة وملتزمة سياسة التعريب الكامل والشامل على أرض الواقع في مجتمعها؛ إذ إن عرقلة تقدم مسيرة التعريب بعد الاستقلال طالما كانت مسألة مسيسة، كما أشرنا.

2 – **الشروع ثم التكثيف والاستمرار** في الحملات الوطنية التوعوية للخاصة والعامة بخصوص تحسيس التونسيين بمشروعية كل من تطبيع علاقتهم مع اللغة العربية، لغتهم الوطنية وانتمائهم إلى الهوية العربية الإسلامية.

المصادر:

أحمد عبدالسلام (1994). **المدرسة الصادقية والصادقيون.** قرطاج: بيت الحكمة.

جلول الجريبي (1992). **الهوية في تونس للعهد الجديد.** تونس: الوكالة التونسية للاتصال الخارجي.

دستور الجمهورية التونسية (1998). تونس: المطبعة الرسمية.

علي القاسمي (2003). تعريب التعليم العالي – هل ضروري حقاً؟. **المنهل،** ع 585، مارس–أبريل: 4–25.

عفيف البوني (1992). **الحق في الهوية.** تونس: الوكالة التونسية للاتصال الخارجي.

محمود الذوادي (1983). تقرير حول «ندوة التعريب في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية»، **مجلة العلوم الاجتماعية،** 11 (3): 237 – 243.

محمود الذوادي (1995). «في مخاطر الازدواجيات اللغوية والثقافية على اللغة والهوية الجماعية»، **الفكر العربي،** 16 (80): 25.

محمود الذوادي (1997). في محددات الهوية الجماعية وإشكالياتها: المجتمع التونسي الحديث نموذجاً، **المستقبل العربي،** ع 217، آذار/مارس: 29–50.

محمود الذوادي (2002). **التخلف الآخر: عولمة أزمة الهويات الثقافية في الوطن العربي والعالم الثالث،** تونس: الأطلسية للنشر.

محمود الذوادي (2003). **أضواء على شخصية بورقيبة وعلاقتها المتوترة مع الإسلام والعروبة في السلطة وآليات الحكم في عصر بورقيبة بتونس والبلاد العربية.** مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات.

الميثاق الوطني (1988). تونس: مطبعة سنيب لابراس.

Bourdieu, P. (1970). *La reproduction: Eléments pour une théorie du système d'enseignement*, avec J.C. Passeron, Minuit, Paris.

Leclerc, J. (1986). *Langue et société*, Laval, Mondia Editeurs.

Ruano-Boballan, J.C. (1998). (coordinateur): *L'identité: l'individu, le groupe*, la société. Editions Sciences Humaines, Auxerre.

Ruf.W.K, (1974). Dépendance et aliénation culturelle, in *Indépendance et Interdépendance au Maghreb*, Paris: CNRS.

Gamson, W., and Modigliani, A. (1979). *Conceptions of social life: A text-reader for social psychology*, Washington D.C: Universtity Press of America.

Jahoda, M. (1966). & Warren, N., (Eds). *Attitudes*, Middlesex, Penguin Books.

Schur, E.M. (1980). *The Politics of deviance*. Englewood Cliffs, N.J.Prentice-Hall.

قدم في: مايو 2004.

أجيز في: ديسمبر 2004

Sociology

Tunisian Society Alienated from the Arabic Language: Causes and Results

Mahmoud Al-Dhaouadi*

This study focuses on what we consider a state of alienation between todays educated Tunisians and Arabic (their own national language) fifty years following Tunisian independence. Educated Tunisians still feel ill at ease using Arabic in talking, writing or in their daily life activities. Moreover, the prevailing attitude of most of them towards Arabic is hardly that of pride, strong commitment or willingness to defend or protect it. The socio-psychological perspective adopted in this paper attributes such alienation primarily to the ideology of the Tunisian political leadership, and to the fact that the educated Tunisians themselves are bilingual and bicultural with strong affinities with the French language and culture. The educated elite have, since independence, occupied sensitive key governmental positions, and strongly encouraged the continued presence of the French language and culture. Independence from the French linguistic and cultural influence was hardly present on the agendas of these political, intellectual and scientific elite. It was equally absent from the agendas of most of the bilingual and bicultural Tunisian post-independence society.

Keywords: Contempt of the Arabic language, Alienation of the elites, Societys alienation, The other, Underdevelopment.

* Dept. of Sociology, University of Tunis, Tunis.